﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التّوبة: 95 - 96]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

الرّبط بين أحوال المعتذرين، الّذين يحلفون، تطلّبا لرضا العباد، رغم سخط الخالق

لَمَّا حكى اللّهُ تعالى حالَ المنافقينَ في الآيةِ الأولى أنَّهم يعتَذِرونَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّهم كانوا يؤكِّدونَ تلك الأعذارَ بالأيمانِ الكاذبةِ، فقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾.

ومن المناسبةِ أيضًا بين الآيتينِ أنَّه لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ أنَّهم يحلِفونَ باللّهِ؛ ليُعرِضَ المسلِمونَ عن إيذائِهم؛ بَيَّنَ هنا أنَّهم يحلِفونَ لِيَرضى المسلِمونَ عنهم، ثمَّ إنَّه تعالى نهى المُسلِمينَ عن أن يَرضَوا عنهم، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾: الحَلِفُ، ويُقال: الحَلْفُ، والحِلْفُ: العهدُ بين القوم، والمحالفةُ: المعاهدة، والحَلِفُ: أصلهُ اليمينُ الَّذي يأخذُ بعضُهم من بعضٍ بها العهدَ، ثمَّ عُبِّر بِهِ عن كلِّ يمين، وأصلُه: المُلازَمَةُ، وذلك أنَّ الإنسانَ يَلْزَمُهُ الثَّباتُ على اليَمين، والحَلَفُ أيضًا من قولِك: سَيْفٌ حَلِيفٌ، أيْ: قاطِعٌ ماضٍ، فإذا قُلتَ: حَلِفَ باللّهِ، فكأنَّكَ قُلتَ: قَطَعَ المُخاصَمَةَ باللّهِ تعالى، وقيل: أصْلُهُ: العَقْدُ بالعَزْمِ والنِّيَّةِ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا؛ لأنَّهم كانوا إذا تَحالَفوا؛ ضَرَبَ كلُّ واحِدٍ منهم يَمينَهُ على يَمينِ صاحِبِهِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رجس).

2) ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾: من الانقلاب: وهو الرُّجوعُ لا إلى ما كانَ عليه من قبلُ، ولكن لحالةٍ مُختلفة لا تُشابهُ الحالةَ الأُولى، أيْ: ما قبلَ الحدَثِ[1].

3) ﴿رِجْسٌ﴾: الرِّجْسُ: الشَّيءُ القَذِرُ، "والرِّجس يكونُ على أربعةِ أوجهٍ: إمّا من حيثُ الطَّبعُ وإمَّا من جهةِ العقلِ، وإمّا من جهةِ الشَّرعِ، وإمّا من كلِّ ذلك، كالميتةِ، فإنَّها تُعافُ طبعًا وعقلًا وشرعًا"[2]. وَقَدْ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْحَرامِ والفعلِ الْقَبيحِ، والْعَذابِ، واللَّعنة، والْكُفْرِ والشرك، ويعني هنا: النَّجاسةَ المعنويَّةَ، أو هم نجسٌ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28][3].

4) ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾: المأوى: مصدرُ أوى، يأوي أويًا، ومأوًى، تقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، وهو اسمٌ للمكانِ الَّذي يأوي إليه؛ لذلك يطلقُ على المُستَقَرِّ المريحِ والآمن الَّذي يصلُ إليه بعد جهدٍ وسعيٍ.

5) ﴿لِيَرْضَوْنَكُمْ﴾: الرِّضا: القَبُولُ والمُوافقَةُ، يُقال: رَضِيَ بالبَيْعِ، يَرْضَى، رِضًا ورِضْوانًا، أيْ: قَبِلَ ووافَقَ، ويأتي بمعنى الاِخْتِيارِ والاِنْتِقاءِ، يُقال: رَضِيَ بهذا الطَّريقِ، أي: اخْتارَهُ، ومِن مَعانيه: سُرورُ القَلْبِ وطِيبُ النَّفْسِ، وخِلافُه: السُّخْطُ والكَراهِيَةُ[4].

6) ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: الفِسْقُ: العِصْيانُ والخُرُوجُ عن الطَّاعَةِ، يُقال: فَسَقَ الرَّجُلُ، يَفْسُقُ، فِسْقًا، أيْ: عَصَى وأَذْنَبَ، وأَصْلُ الفِسْقِ: خُرُوجُ الشَّيْءِ مِن الشَّيْءِ على وَجْهِ الفَسادِ، ومنه قَوْلُهُم: فَسَقَ الرُّطَبُ، أيْ: خَرَجَ عن قِشْرِهِ، والفَواسِقُ: الحَيَواناتُ التي مِن طَبْعِها الإفْسادُ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنتِ الآيتانِ أنَّ المنافقينَ كذَّابون – كما هو معلومٌ – لذلك تراهُم يؤكِّدون اعتذارَهم بالأَيمانِ للمؤمنين، فأخبرَهم اللّهُ تعالى بأنَّهم سيَحلِفونَ لكم باللّهِ؛ إذا رجَعْتُم إليهم من غزوةِ تَبوكَ: إنَّهم لم يستَطيعوا الخروجَ معكم؛ لكي تُعرِضوا عنهم، فلا توبِّخوهم

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 113، وابن جرير، جامع البيان: 11/629، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) وأمثلةُ ذلك مذكورةٌ في المفرداتِ للرّاغب لمن أراد المزيدَ: (رجس).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رضي).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).

على قعودِهم ولا تعاتبوهم، فأعْرِضوا عنهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم، لا إعراضَ صفحٍ وإعذارٍ؛ لأنَّهم نَجَسٌ وقَذَرٌ، ومَصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ بسببِ ما كسَبوا. وفي الآية الثانية بيَّنَ أنَّهم لجهلهم بحقيقةِ أنفسِهم وما عملوا، ولعدم إدراكِهم الأمورَ على وجهها الصَّحيح؛ لم يقنعوا بالإعراضِ عنهم، بل يحلفون لكم أغلظَ الأيمانِ لترضوا عنهم، وتعاملوهم كما كنتُم أوَّلًا، وهؤلاء لا يبحثونَ عن رضا اللّه ورسولِه، بل عن مصلحتِهم ومنافعهم، وإذا كان هذا شأنَهم[1]، فإن تَرضَوا عنهم، فلا ينفَعُهم رِضاكم، ولا ينبغي أن يكونَ منكم رضًا عنهم؛ لأنَّ اللّهَ لا يَرضى عن القَومِ الفاسِقينَ.

مهما حلف المنافقون لإرضاء العباد، فإنّ الله يعلم حقيقتهم، ولا يرضى عنهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ دلالةِ الفصلِ في: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾:

فُصلَ قولُه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية؛ لأنَّها جُملةٌ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، لتَعْدادِ قبائِحهم ومثالبهم الَّتي سبق ذكرُ بعضِها في الآيةِ السَّابقة، فجاءت هذه الآيةُ لاستكمالِ هذه المثالب والقبائح، ومَعناها ناشئٌ عن مضمونِ جُملةِ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم لا يَرْعَوُون عَن الكذبِ، ومُخادَعةِ المسلمين[2].

تعدادُ بعضِ قبائحِ المنافقينَ، للتّنبيه إلى خطورتهم ومفاسدهم

دلالةُ السِّين، في قولِه: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾:

فدخولُ السِّينِ على الفعلِ المضارعِ (يحلفون) الغرضُ منه تحقُّقُ الفعلِ في المستقبلِ القريبِ، وهو لمجرَّدِ التَّأكيد، إذ إنَّ الحديثَ إخبارٌ من اللّهِ بما سيحدُثُ في المستقبلِ، فقد سبقَ عِلْمُهُ تعالى بما سيقولُهُ المنافقون؛ ليتعلَّلُوا به عن تخلُّفِهم عن غزوة تبوكَ، فَهُم سيحلفونَ لتستديمَ معاملتُهم بظاهرِ إسلامِهم، وبذلك يخرجونَ من ضيقِ نفاقِهم إلى سعةِ رضا المؤمنين؛ لأنَّ السِّينَ حرفُ تنفيسٍ

تحقّق الفعل عند الحلف بصيغة المستقبل، من الإعجاز الغيبيّ في السّياق

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 2/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.

وتوسيعٍ، وذلك أنَّها تنقلُ المضارعَ من زمنِ الضِّيق - وهو الحالُ - إلى الزَّمن الواسعِ وهو الاستقبالُ، فهي لتخليصِ المضارعِ من الحالِ إلى الاستقبالِ.

سرُّ اختيارِهم للحلفِ في: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

آثروا الحلفَ على غيرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الهدفَ عندَهم عدمُ فقدانِ الثِّقة في أنفسِهم وفي بضاعتهم الَّتي يروِّجونَ لها، وأيضًا لكي يُعرِضَ النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون عنهم.

أهلُ النِّفاقِ يحرصونَ على الحلفِ، لتبرئةِ ساحتِهم، لاستخفافهم بالعقاب

سرُّ تقييدِ حلفِهم بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

قوله: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾، محاولةٌ إقناعِ المؤمنينَ بصدقِهم فيما يقولونَ، ولرفعِ صفة الكذبِ عنهم، وليس لرفعِ ما خاطبهم النَّبيُّ ﷺ به من قوله: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾، بل هو أمرٌ مبتدأٌ لتحسين صورتِهم أمامَ المؤمنين.

الخداعُ بالحلفِ بالاسمِ الأعظم (الله)، لا يرفعُ الكذبَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ في قولِهِ: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾؛ لإبراز الحالةِ النَّفسيَّةِ عند المنافقين من جبنِهم وضعفِهم، كلَّما وجِّهت إليهم تهمةٌ؛ لا يجدون وسيلةً لدفعها عنهم إلَّا بالحلفِ الكاذبِ، ومن المعلومِ أنَّ المواقفَ الَّتي دارت بين المسلمين والمنافقين كثيرةٌ، فكلَّما وجِّهت لهم تهمةٌ؛ جدَّدوا الحلفَ لتبرئةِ ساحتِهم.

أهلُ النِّفاقِ كثيرو الحلفِ بالكذب، لعدم علمهم بمغبّة ذلك، وسوء عقباه

سرُّ حذفِ المحلوفِ عليهِ:

حُذِفَ المحلوفُ عليه في قوله: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾؛ لتقدُّمِ نظيرِهِ في قوله: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ [التوبة: 42] إلَّا أنَّ ما تقدَّم في حلفِهم قبل الخروجِ، وكذلك لكون الكلامِ يدلُّ عليه، وهو ما اعتذروا بهِ من الأكاذيبِ الباطلةِ، والمرادُ يحلفونَ باللهِ لكم

حُذِفَ المحلوفُ عليهِ، لتقدُّمِ مثيلِهِ، وهو من بليغِ البيان

أنَّهم ما قدروا على الخروجِ، أو ما أشبهَ هذا[1]، والجملةُ بدلٌ من ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ أو بيانٌ له[2] وإنَّما إلماعٌ إلى أنَّهُ عذرٌ لم يكن لهُ في الواقعِ أدنى نصيبٍ، فلم يكن جديرًا بذكرهِ دلالةً على انتفائِهِ من الواقع.

دلالةُ الباءِ، في قولهِ: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ (الباء) دونَ غيرِها؛ لأنَّها للقسَمِ، وهي أصلُ حروفِهِ، ومردُّها للإلصاقِ، وذلك من بابِ إلصاقِ القسَمِ بالمقسَمِ به، قال الرّازيُّ: وأمّا باء القسَم، وهو قولهُ: (باللّه) فهو من جنس باءِ الإلصاقِ، وقالَ الزَّمخشريُّ: (باللّهِ) مُتعلِّقٌ بـ (سيحلفون) أو من جملةِ كلامِهم، والقولُ مرادٌ في الوجهين، أي: سيحلفون عند رجوعِكَ معتذرين، أو سيحلفونَ باللّهِ، ويقولون: لو استطعنا[3].

القسَمُ من المؤكّدات الّتي تمكّن الشَّيءَ في النَّفسِ وتقوّيه

دلالةُ التَّعبيرِ باللّامِ في: ﴿لَكُمۡ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ باللَّام في قوله: ﴿لَكُمۡ﴾؛ لأنَّها تفيدُ الاختصاصَ، وهو أصلُ معانيها، وقد تصحبهُ معانٍ أخرى، والمعنى: أنَّ المنافقينَ سيحلفونَ لرسولِ اللّه وصحابته الكرامِ باللّهِ تعالى دونَ غيرِهم كذبًا وبهتانًا لتسويغِ نفاقِهم، وفي هذا الاختصاصِ تنبيهٌ وتحذيرٌ للمؤمنين من كذبِهم وحيلِهم.

المنافقُ لا يقصدُ غيرَ المصلحةِ العاجلة من البشرِ

كما أنَّ فيهِ كشفًا لغرضِهم من الحلفِ فمقصودُهم المصلحةُ وهو رضا المسلمين عنهم أو إعراضهم عنهم لتمضي مصالحهم على ما كانت عليهِ من قبلُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

قولهِ: ﴿إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إن)؛ لأنَّ الأصلَ في (إذا) أن تستعملَ في الأمرِ المقطوعِ بحصولهِ، وللكثيرِ

الإشارة إلى تحقّقُ رجوعِ الرَّسولِ الأكرم والمؤمنينَ إلى المدينةِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/7، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/375، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.

(2) الآلوسيّ، روح المَعاني: 5/6.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/273، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/96.

الوقوع، بخلافِ (إن) الَّتي تفيدُ قلَّةَ الوقوعِ أو نُدْرَتَه، والمقامُ هنا يناسبهُ التَّعبيرُ بـ ﴿إِذَا﴾ الَّتي تفيدُ تحقُّقَ عودةِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين إلى المدينة سالمين غانمين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ حَلِفَ المنافقين للمؤمنين أمرٌ مقطوعٌ بحصولهِ ومتحقِّقٌ لا محالة، وقد حلفوا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾:

عبَّرَ بالفعلِ الماضي ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ الَّذي يدلِّل على تحقُّق الوقوعِ للبشارةِ للمؤمنين بأنَّهم سيعودون إلى المدينةِ المنوَّرةِ، ويستقرُّون فيها سالمين.

بشارةُ المؤمنينَ بالعودةِ سالمين غانمين

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ بحرفِ الجرِّ (إلى):

قولهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، عُدِّي الفعلُ بحرفِ الجرِّ (إلى)؛ لأنَّها تفيدُ انتهاءَ الغايةِ؛ لأنَّ عودةَ الرَّسولِ ﷺ والمسلمين إلى المنافقينَ غايةٌ في ذاتِها، وفيه إشارةٌ إلى غيظِ المنافقينَ بعودةِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ لأنَّهم ما كانوا يحبُّون عودتَهم، بل يتمنَّون أن يقتلَهم الرُّوم، ويستأصلوا شأفَتَهم، فكانَ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (إلى) يعطي معنى: عدْنا إليكم لنكسرَ شوكتَكم، ونضعفَ قوَّتَكم.

رجوعُ المسلمينَ سالمينَ غانمين، غيظٌ للمنافقينَ وحسرة

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

عبَّرَ بالضَّمير (هم) في قولهِ: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عن المنافقينَ، فلم يقلْ: إذا انقلبتُم إلى المنافقينَ؛ للتَّهوين من شأنهم وإضعافِ الرُّوح المعنويَّةِ عندهم، فانطفأتْ وجاهتُهم، وضعفت قوَّتهم، فلم يعد لهم ظهورٌ بعد هذهِ الغزوةِ. وفيه تلطُّفٌ في التَّعامل معهم، حيثُ لم يلصق بهم وصفُ النِّفاق، لعلَّ بعضَهُم يخرجُ من نفاقهِ، ويعودُ إلى صفوفِ المسلمينَ.

التَّعبيرُ بالضَّمير، تهوينٌ لشأنِ المُعَبَّرِ عنهم بهِ

دلالةُ اللَّامِ في قولهِ: ﴿لِتُعْرِضُواْ﴾:

اللَّامُ في قولهِ: ﴿لِتُعْرِضُواْ﴾ لامُ التَّعليلِ، والمعنى: أيْ: لتتركوهُم، ولا تعاتبوهم، ولا تؤنِّبوهم، أو توبِّخوهم على ما فعلوا، وفي هذا

هدفُ المنافقينَ استدامةُ معاملتِهم بظاهرِ إسلامِهم

إشارةٌ إلى أنَّ الغرضَ من الحلفِ إعراضُ المسلمينَ عنهم، وليس حبًّا في المسلمينَ، فهم لم يقصدوا تطييبَ خواطرِ المسلمينَ، ولكن أرادوا التَّملُّص من مسبَّةِ العتابِ ولذعه، ولذلك قال في الآيتين الأُخريين: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: 62] ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: 96]؛ لأنَّ ذلكَ كانَ قبل الخروج إلى الغزو، فلمّا فاتَ الأمرُ، وعَلِموا أنَّ حلفَهم لم يصدِّقْهُ المسلمونَ؛ صاروا يحلِفون لقصد أن يعرضَ المسلمونَ عنهم[1].

بلاغةُ الجناسِ في ﴿لِتُعْرِضُوا۟﴾ ﴿فَأَعْرِضُوا۟﴾:

في الآيةِ الكريمة جناسُ اشتقاقٍ بين ﴿لِتُعْرِضُوا۟﴾ و﴿فَأَعْرِضُوا۟﴾، ففعْلُ الإعراضِ وردَ مرَّتينِ والمعنى: في كلٍّ منهما مختلفٌ، فيكونُ ذلك من بابِ اتِّفاق اللَّفظ واختلاف المعنى، فالإعراضُ المقصودُ بالفعلِ المضارعِ مسامحةٌ وغفرانٌ، ولكنَّ الإعراضَ الَّذي قُصِدَ بفعلِ الأمرِ مغاضبةٌ وتركٌ وإهمالٌ، أي: إنَّ هؤلاءِ سيحلفون طلبًا للغفران، ولكنَّ اللّهَ يأمرُ المسلمينَ بالإعراضِ عنهم إعراضَ اجتنابٍ ومقتٍ.

إعراضٌ بينَ المسامحةِ والمغاضبةِ، في سياق الآية الكريمة

سِرُّ تعديةِ الإعراضِ بالحرف (عن)، المتَّصلةِ بضمير (هِم):

قوله: ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾، وفيه عُدِّيَ فعلُ الإعراضِ بحرف الجرِّ (عن) في الموضعين؛ لأنَّهُ يُفيدُ معنى المجاوزةِ، فقوله: ﴿عَنْهُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بفعلِ الإعراض، ومعنى المجاوزةِ في الآيةِ واضحٌ، وذلك مِن خلال تعديةِ فعلِ الإعراضِ بحرفِ المجاوزةِ والتَّركِ، قال السَّمرقنديُّ: ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ يعني: تتجاوزوا، وتصفحوا عنهم[2] وفقَ هواهُم ورغبتِهم، يؤكِّد ذلك ما قالَهُ ابنُ عاشورٍ: "أدخلَ حرفَ (عن) على ضميرِ المنافقين بتقديرِ مضافٍ يدلُّ عليهِ السِّياقُ لظهورِ أنَّهم يريدونَ الإعراضَ عن لومِهم، ففي حذفِ المضافِ تهيئةٌ لتفريع

الإعراضُ ضربٌ من التَّقريعِ للمنافقين في الآية الكريمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/82.

التَّقريع الواقع بعده بقولِه: فأعرضوا عنهم، أي: فإذا كانوا يرومونَ الإعراضَ عنهم؛ فأعرضوا عنهم تمامًا.

وهذا ضربٌ من التَّقريعِ فيه إطماعٌ للمغضوب عليه الطالبِ؛ بأنَّه أُجيبتْ طُلبتُهُ، حتَّى إذا تأمَّلَ وجدَ ما طمعَ فيهِ قد انقلبَ عكسَ المطلوبِ، فصار يأسًا؛ لأنَّهم أرادوا الإعراضَ عن المعاتبةِ بالإمساكِ عنها واستدامةِ معاملتِهم معاملةَ المسلمين، فإذا بهم يواجَهونَ بالإعراضِ عن مكالمتِهم ومخالطتِهم، وذلك أشدُّ ممّا حلفوا للتَّفادي عنه، فهم من تأكيدِ الشَّيءِ بما يشبهُ ضدَّهُ أو من القولِ بالموجبِ"[1].

دلالةُ (الفاءِ) في: ﴿فَأَعْرِضُواْ﴾:

الـتَّرتـيـبُ والاستـجـابـةُ المـبـاشـرةُ، من بيان الجملة

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَأَعْرِضُواْ﴾ دونَ غيرِها؛ لأنَّها تفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، وهذا هو المناسبُ لطلبِ المنافقينَ في غرضِهم، فكانَ الأمرُ من اللّهِ مباشرةً دونَ تأخيرٍ؛ لأنَّهم رجسٌ.

الغرضُ مِنَ الأمرِ في الفعل ﴿فَأَعْرِضُواْ﴾:

الإعـراضُ عن المـنـافـقـينَ، إعـراضُ تحقيرٍ وإهانةٍ

لـمَّا ذكرَ حَلِفَهُم لأجل الإعراضِ، جاء الأمرُ بالإعراض نصًّا؛ لأنَّ الإعراضَ من الأمورِ الَّتي تظهرُ للنَّاس، فأعرضوا عنهم إعراضَ الإهانةِ والتَّحقير، لا إعراضَ الصَّفحِ وقبولِ العُذرِ، وفي هذا التَّعبيرِ ما يُسمَّى بـ (القول الموجب) وهو قبولُ ما يبغونَ من الإعراضِ عنهم، ولكن على غير الوجهِ الَّذي يرجونَه منهُ، بل ضدَّهُ[2].

دلالةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾:

المنافقونَ سيِّئو النِّيَّاتِ، خبيثُو الطَّوايا

فُصلت هذهِ الجملةُ عمَّا قبلَها للاستئنافِ التَّعليليِّ؛ لأنَّها تعليلٌ للأمرِ بالإعراضِ، ووُقوعُ (إنَّ) للتَّوكيد في أوَّلِ الآية مُؤْذِنٌ بمَعنى التَّعليلِ، فالجُملةُ تَعليلٌ لِتَرْكِ مُعاتبَتِهم، يَعْني: أنَّ المُعاتَبةَ لا تَنفَعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.

(2) الواحديّ، التفسير الوسيط، ص: 118، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/491، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/5.

فيهم، ولا تُصلحُهم، إنَّما يُعاتَبُ الأديمُ ذو البَشَرةِ[1]، والفرقُ بين المؤمنِ والمنافقِ أنَّ المؤمنَ يُعاتَبُ على زَلَّةٍ تَفرُطُ منه؛ ليُطهِّرَهُ العتابُ بالحملِ على التَّوبةِ والاستغفارِ، وأمّا هؤلاءِ؛ فأرجاسٌ لا سبيلَ إلى تَطهيرِهم[2].

دلالةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾:

احتقارُ المنافقينَ وازدراؤُهُم لنجاسةِ بواطنِهم

تتابعُ المؤكِّدات في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، حيثُ جاءتِ الجملةُ مؤكَّدةً بـ (إنَّ) المؤذنةِ بمعنى التَّعليل، وبالاسميَّةِ لتحقيق تمام التَّهكُّم بهم، حيثُ إنَّهم صورةٌ مجسَّمة من الرِّجس.

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ البليغِ في: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾:

التَّعليلُ لوجوبِ الإعراضِ عن المنافقينَ

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تشبيهٌ بليغٌ، حيثُ جعلَ اللّه تعالى المنافقينَ هم عينُ النَّجاسةِ والخَبَث؛ لما انطوت عليه قلوبُهم من النِّفاق والكفرِ بعد سطوعِ الآياتِ الدّالَّة على صِدق النَّبي ﷺ والغرضُ من التَّشبيهِ هو المبالغةُ في تصوير ما هم عليه، والتَّشنيع بحالهم، حتَّى كأنَّ العينَ ترى خَبَثَهم، والأنفَ يشتمُّ قَذَرَهُم، وفي هذا مِن التَّحذير ممّا هم عليه شيئًا لا يُقادَر قدره[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿رِجْسٌ﴾:

المبالغةُ في نجاسةِ أعمالِ المنافقينَ، وقبحِ بواطنِهم

الغرضُ من تنكيرِ كلمةِ ﴿رِجْسٌ﴾ إهانتُهُم وتحقيرُهم والتَّشنيعُ بهم، فهم القذارة والنَّجاسةُ عينها، وهذه مبالغةٌ في ذمِّهم وخسَّة أعمالهم، وقبح بواطنهم، وفي هذا التَّصويرِ ما يدعو إلى التَّقزُّز منهم، والاشمئزاز.وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القليلَ من هذه النجاسةِ يكفي لذمِّهم وخسَّةِ أعمالهم، فكيفَ والتَّنكير يشيرُ إلى تحقُّقِ النَّجاسة فيهم في الظّاهرِ والباطنِ.

---

(1) أي: إنَّما يُعاتب من فيه رَجاءٌ ومُستعتَبٌ، ويُراجَع من تصلُحُ مُراجعَتُه، والمعاتبةُ: المعاودةُ، وبَشَرةُ الأديمِ: ظاهرُه الَّذي عليه الشَّعَر، أي أنَّ ما يُعادُ إلى الدِّباغِ مِن الأديمِ ما سلِمت بشرتُه. يُنظر: العسكري، جمهرة الأمثال: 1/69، والميدانيّ، مجمع الأمثال: 1/40.

(2) الزّمخشريّ، الكشاف: 2/302، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/9.

(3) القنوجي، فتح البيان: 5/375، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/10.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿رِجْسٌ﴾:

قوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالمفرد ﴿رِجْسٌ﴾؛ لأنَّهُ مصدرٌ، والمصدرُ يطلقُ على القليلِ والكثيرِ، والمرادُ هنا الكثيرُ لكونهِ خبرًا عن ضميرِ الجمعِ(1).

وصف المنافقين بأنّهم رجس، يعبّر بدقّة عن قلوبهم وأفعالهم

سرُّ التَّعبيرِ بالواوِ ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾، دونَ الفاءِ:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالواو دون الفاءِ في قوله: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لعدَّةِ دلالاتٍ ذكرَها أبُو البقاءِ بقولهِ: إن قيل: كيف حسنتِ الواوُ هنا، والفاءُ أشبهُ بهذا الموضع؟ ففيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أهلُ الرِّجسِ مسكنُهم جهنَّمُ، وساءت مصيرًا

أحدها: أنَّ الواوَ واو الحالِ، والتقدير: افعلْ ذلك في حال استحقاقِهم جهنَّمَ، وتلك الحالُ حالُ كفرهِم ونفاقِهم.

والثّاني: أنَّ الواوَ جيءَ بها تنبيهًا على إرادةِ فعلٍ محذوفٍ، تقديرهُ: واعلمْ أنَّ مأواهُم جهنَّمُ.

والثّالثُ: أنَّ الكلامَ حُمِلَ على المعنى، والمعنى: أنَّه قد اجتمعَ لهم عذابُ الدُّنيا بالجهاد والغلظةِ، وعذابُ الآخرة بجعلِ جهنَّمَ مأواهُم(2).

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ، في ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بالاسميَّةِ تحقيقَ تمامِ التَّهكُّمِ عليهم؛ لأنَّ المأوى مكانُ الاطمئنانِ والرّاحةِ، وإنَّ المنافقين يسعونَ إلى طلبِ رضا النَّبيِّ والمؤمنين، فيحلفونَ لهم بما يقربُ قلوبهم خوفًا من الجزاءِ المعدِّ لهم في جهنَّمَ وساءتْ مصيرًا. وممّا يذكرُ أيضًا في سرِّ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ: أنَّ استقرارَهُم في جهنَّمَ من دواعي الاجتنابِ عنهم، ومن موجباتِ تركِ استصلاحِهم باللَّومِ والعِتابِ، وعلى هذا تكونُ الجملةُ من تمامِ التَّعليلِ أو تكونُ تعليلًا مُستقلًّا، أي:

استمرارُ التَّهكُّم بهم، وتحقيقُهُ في واقع التّعامل معهم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/314.

(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/651، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/86، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/147.

وكَفَتْهم النّارُ عتابًا - على حدٍّ: عتابُهُ السَّيفُ ووعظُه الصَّفعُ - فلا تتكلَّفوا أنتم بذلكَ[1].

سرُّ اختيارِ وصفِ جهنَّمَ، دونَ غيرِها مِنَ الأوصافِ:

آثرَ التَّعبيرَ بوصفِ جهنَّمَ دونَ غيرِها مِنَ الأوصافِ؛ لأنَّ هذا الوصفَ يشيرُ إلى تجهُّمِ هؤلاءِ المنافقين في وجوهِ المؤمنينَ، فعاقبَهم اللّهُ بجنسِ ما فعلوا، وجعلَ لهم جهنَّمَ في الآخرةِ جزاءً وفاقًا.

تجهُّمُ المنافقينَ في وجهِ المؤمنينَ، يجعلُ جزاءَهم من جنسِ عملِهم ﴿جَهَنَّمُ﴾

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا﴾ لها أثرٌ واضحٌ في دلالةِ المعنى، وهو أنَّ استقرارَهم في جهنَّمَ بما كسبوه في الدُّنيا من آثامٍ في أقوالِهم وبثِّهم الشَّرَّ والفسادَ بين المؤمنينَ، وعليه فالباءُ في الآيةِ الكريمةِ معناها السَّببيَّةُ.

الجزاءُ هو الأجرُ العادلُ للفعلِ

بلاغةُ فاصلةِ الآيةِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

خُتِمَتِ الآيةُ بهذا الختامِ جوابًا على سؤالٍ كأنَّه قيلَ: لماذا جُعِلَ جزاؤهم جهنَّم؟ فكان الجوابُ بكسبِهم في الدُّنيا من أذى النَّبيِّ والمسلمينَ، فكانتْ هذهِ الجملةُ بِمَنْزِلَةِ التَّعليلِ للعقابِ الَّذي ينتظرهم.

جزاءُ الآخرةِ ثمرةٌ لعملِ الدُّنيا

سرُّ الجمعِ بين صيغتي الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والمضارعِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، جَمَعَ فيه بين صيغتي الماضي والمضارع للدَّلالةِ على الاستمرارِ المتكرِّرِ في كسبِ السَّيِّئات في الدُّنيا، في ماضيهم وحاضرهم، فكأنَّهُ لا يصدر عنهم في أيِّ زمنٍ إلَّا الكسبُ المذمومُ.

من اتّصف بالنّفاق المشؤوم، لم يصدر منه إلّا ما هو مذموم

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالكسبِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مع أنَّ السِّياقَ يقتضي التَّعبيرَ بالاكتسابِ أنَّهُ في مقامِ العقابِ، وذلك للدِّلالةِ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/375، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3419.

كسب السّيّئات مبالغة في تحوّل الشرّ لديهم، إلى ملكة مغروزة في الطّبع

أنَّهم تمكَّنوا في فعل السَّيِّئات لدرجة أنَّ كسبَ السَّيِّئات صار من طبيعتِهم، فلا يتكلَّفُ في أمرِها شيئًا من العنتِ والمشقَّةِ، وهذا خروج على مقتضى الفطرةِ والشَّرعِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ فرَّقت بين الكسبِ والاكتسابِ، وهذا أيضًا ظاهرٌ في لغةِ القرآنِ، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، فالملاحظُ التَّفريق بين الكسبِ والاكتسابِ، فأصلُ الكسبِ يأتي في الخيرِ والاكتسابِ في الشَّرِّ. وعلى ذلك إذا استعملَ الكسبَ في الشَّرِّ، فيكونُ ذلك من بابِ المبالغةِ في كسبِهم للسَّيِّئات وإلفهم لها، فما عادَتْ تحتاجُ إلى جهدٍ؛ لأنَّهم تعوَّدوا عليها، وهذا هو المناسبُ لسياقِ المنافقين.

دلالةُ الفصلِ: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾:

فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها بدلُ اشتمالٍ من جملة ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّهم إذا حلفوا لأجلِ أن يعرضَ عنهم المسلمون، فلا يلومونهم فإنَّ ذلك يتضمَّن طلبهم رضا المسلمينَ[1].

حلفُ المنافقينَ، لأجلِ رضا المؤمنين عنهم

سرُّ حذفِ المحلوفِ بهِ، معَ ذكرِهِ في الآيةِ السَّابقةِ:

حُذِفَ المحلوفُ بهِ لظهورِهِ، أي: يحلفونَ باللهِ تعالى، حيثُ سبقَ ذكرهُ في قولهِ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾.

لا معنى للحلف إلّا بالله، فبه تصحّ اليمين وتنعقد

غرضُ تكرارِ الحلفِ في: ﴿يَحْلِفُونَ﴾، بعد: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾:

اختلفَ الغرضُ من الحلفِ في الآيتين: فالآيةُ الأولى كان حَلْفُهم لأجلِ الإعراضِ فقط، وفي الآية الثَّانيةِ من أجل الرِّضا؛ لذلكَ جاءَ الأمرُ بالإعراض نصًّا؛ لأنَّ الإعراضَ مِنَ الأمورِ الَّتي تظهرُ للنَّاسِ، أمَّا الرِّضا؛ فهو من الأمورِ القلبيَّةِ الَّتي تخفى[2]؛ لذلك أبرزَ النَّهيَ عن الرِّضا في صورةٍ شرطيَّةٍ.

اختلافُ الغرضِ من الحَلْفِ في الآيتين (الإعراض) و(الرِّضا)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/491، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/376، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

والنَّاظرُ في هاتين الآيتين يجدُ أنَّ الحَلْفَ تكرَّرَ من المنافقين، قال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾، وهذا التَّكرارُ يحتملُ وجهين: الوجهُ الأوَّلُ: في الغرضِ من الحَلْفِ، فيحلفونَ أوَّلًا طلبًا للإعراضِ، وثانيًا طلبًا للرِّضا. الوجهُ الثَّاني: اختلافُ الحالفين، فيَحْتَمِل أن يكونَ الحلفُ الأوَّلُ من أتباعِهم؛ لأنَّهم في منزلةِ من يخافُ العقوبةَ، فيحلفونَ قصدًا للإعراضِ وطلبًا للمُسالمةِ فقط، والثَّاني مِن رُؤسائِهم؛ لأنَّهم في منزلةِ من لا يخاف العُقوبةَ، فيحلف قصدًا لرضاءِ المؤمنينَ عنه[1].

أو أنَّ قولهُ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ بدلٌ من قولهِ تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾، حيثُ جاءت موضِّحةً لغرضِ ذلك الحَلْفِ أنَّه لنيلِ رضاكم عنهم، فجاءت أدلَّ على الغرضِ الَّذي تحملُهُ من الآيةِ المبدلةِ منها، فلا مغايرةَ بينهما؛ لذلك فصلَتا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ في ﴿يَحْلِفُونَ﴾:

الحلفُ والإكثارُ منه، هو ديدن المنافقينَ

تكرارُ لفظةِ (يحلفون) في السُّورةِ بصيغِ المضارعِ المتنوِّعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والحدوث، وهي تشيرُ إلى أنَّ الحلفَ والإكثارَ منه هو لباسُ المنافقين ووشاحهم السّاتر، ونديمهم الملازم، حيثُ كان هدفُهم من الحَلْفِ أن يُرضوا المؤمنين، ولا يفعلون ذلك لوجهِ اللهِ ولا لِلْبِرِّ، فكثرةُ الحَلْفِ ديدنُ أهلِ النِّفاق، ولا يستبعدُ منهم ذلك؛ لأنَّ بطانةَ المنافقين تنطوي على الكذبِ والمراوغةِ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في: ﴿لَكُمْ﴾:

المنافقونَ مصلحتُهم منافعُ الدُّنيا الغرور، وما فيها من متاعِ وسرور

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمْ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ أخذًا من اللَّام؛ لأنَّ معناها الاختصاصُ، وهو أصلُ معانيها، وعلى هذا؛ فالمعنى: أنَّ المنافقينَ سيحلفونَ للمؤمنينَ كذبًا لتسويغِ نفاقِهم، وفي تخصيصهِ بالمؤمنينَ تنبيهٌ وتحذيرٌ لهم من خداعِهم ومكرِهم.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/324.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ، عن القومِ الفاسقينَ:

قوله: ﴿يَحْلِفُونَ﴾، وفيه بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بالتَّعبيرِ عن هؤلاءِ المنافقينَ بضميرِ الغَيْبةِ، ثمَّ عدلتْ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في نهايتِها بقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وهو عدولٌ يفيدُ بأنَّ غضبَ اللهِ تعالى وعدمَ رضائِه لا يتعلَّق بهؤلاءِ، بل بسببِ ما يضمرونَهُ من نفاقٍ في صدورِهم، وليعمَّ الحكمُ كلَّ من كانَ على شاكلتِهم.

غضبُ اللهِ تعالى، يتعلَّقُ بما يضمرُ المنافقُ في صدرِه

دلالةُ اللَّامِ ومعناها، في قولِه: ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾:

اللَّامُ: لامُ التَّعليلِ، أي: علَّةُ الحَلِفِ بالأيمانِ الكاذبةِ: هي أن ترضوا عنهم، أي: تقبَّلوا ما فعلوهُ من التَّخلُّف، ولا تؤاخذوهم، ولا تعاتِبوهُم، بل تسديمون ما كنتُم تفعلونَ بهِم.

تحديدُ أغراضِ القلوبِ، فضحٌ للمنافقينَ

سرُّ التَّعبيرِ بـ(عن) في: ﴿عَنْهُمْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ (عن) الَّتي تفيدُ المجاوزةَ، وكأنَّ المنافقين يطلبونَ من المؤمنينَ التَّجاوزَ عمّا صدرَ منهم من التَّخلُّف عن الجهادِ، ومن الأعذارِ الكاذبةِ الَّتي أبدوها لرسولِ اللهِ ﷺ وللمؤمنينَ، ويكونُ ذلك في حكمِ الماضي المنسيِّ، فلا يلامونَ عَليهِ، ولا يوبَّخونَ بِهِ.

جرائمُ النِّفاقِ لا تسقطُ بالتَّقادمِ، بل بالتَّوبةِ النَّصوح

دلالةُ الفاءِ ومعناها في ﴿فَإِن﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِن تَرْضَوْا﴾ للجزاءِ أو للسَّببيَّة، والمعنى: فإنَّ رضاكم لا يستلزمُ رضا اللهِ، ورضاكم وحدَهُ لا ينفعُهم؛ إذا كانوا في سخط اللهِ؛ لأنَّ مقصودَهُم من رضا المسلمينَ عنهم، التَّحصُّنُ بحوزةِ الإسلامِ وصيانة أنفسِهم عن الذلِّ والهوانِ[1].

التَّعجيلُ بالجزاءِ تهديدٌ، وإرضاءُ الخلقِ لا يغني عن رضا اللهِ

علَّةُ التَّعبيرِ بـ(إن) الشرطية:

آثرَ التَّعبيرَ بإن الشَّرطيَّةِ الَّتي تفيدُ الاحتمالَ والشَّكَّ، أي: إن ﴿تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ على سبيل الافتراضِ، وتنسوا ما فعلوهُ من التَّخلُّف،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/315.

وتصفحوا عنهم؛ فليس لرضاكم فائدةٌ، ولا يهُمُّ؛ لأنَّ رضا اللهِ سبحانه هو وحدَهُ المهمُّ، والمقبولُ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنينَ لن يقعَ منهم رضًا على هؤلاءِ المنافقينَ، فكأنَّ التَّعبيرَ بـ (إن) يحمل معنى النَّفي، وعلى ذلك فإيرادُ كلمةِ الشَّكِّ ﴿فَإِن﴾ كان هو المناسبُ لمنعِ وقوعِ الرِّضا على العمومِ، وفي نفسِ الأمر الَّذي طلبوهُ مع قطعِ النَّظرِ عن قائلِه[1].

الصَّحابةُ الكرامُ أعلى قدرًا من الرّكون إلى ترضيةِ منافقٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ في: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾:

التَّعبيرُ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾إلى آخرِ الآيةِ، يتضمَّنُ النَّهيَ عن الرِّضا عنهم، ويدلُّ أيضًا على أنَّ حكمَ هذه الآيةِ يستمرُّ في كلِّ مغموصٍ عليه ببدعةٍ ونحوها، فإنَّ المؤمنَ ينبغي أن يبغضَهُ، ولا يرضا عنه لسببٍ من أسبابِ الدُّنيا[2].

كلُّ رضًا دونَ رضا اللهِ، لا فائدةَ منهُ، ولاجدوى فيه

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

جوابُ الشَّرطِ في قولهِ: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فإن ترضوا عنهم على سبيلِ الفرضِ، فإنَّ رضاكم عنهم لن ينفعَهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يرضى عن القومِ الَّذين خرجوا عن طاعتهِ[3]، فلا يتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنَّ رضا المؤمنين عنهم يقتضي أن يرضى اللهُ تعالى عنهم، فأفادَ اليأسَ من تحقُّقِ الرِّضا لهم، فالجوابُ محذوفٌ، أي: إن ترضوا عنهم، فلا ينفعُهم رضاكم[4]. وفي حذفِ جوابِ الشَّرطِ تلطُّفٌ بالمؤمنينَ، ليقدِّرَ كلُّ واحدٍ منهم الجوابَ بما يمنعهُ من الرِّضا مهما حلفَ المنافقونَ.

تقدير الجواب المحذوف، قدْحٌ للذّهن، وإثْراءٌ للمعنى

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/316.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/10، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/385.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/161.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَرۡضَوۡاْ﴾، على سبيل الكناية:

رضا المسلمين عن الآخرين، مرتبط برضا ربّ العالمين

قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾، وفيه التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ للدَّلالةِ على الحالِ والاستقبالِ والدّيمومةِ، فقولُهُ: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ توجيهٌ "وتحذيرٌ للمسلمين من الرِّضا عن المنافقينَ بطريقِ الكنايةِ؛ إذ قد علمَ المسلمونَ أنَّ ما لا يُرضي اللّهَ لا يكون للمُسلمين أن يرضوا بهِ"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ في: ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

من اعتدى على حرمة الدّين، فلا ودّ له عند المسلمين

عبَّرَ بالجارِّ والمجرورِ، لتحذيرِ المسلمينَ من تجاوزِ ما فعلَهُ المنافقونَ، في صفوفِ المسلمينَ من إضعافِهم ومحاولةِ توهينِ قوَّتِهم.

دلالة الفاءِ الفصيحة في: ﴿فَإِنَّ﴾:

لا ولاء لمنافق، بالقلب، ولا بالمعاملة

الفاءُ الفصيحةُ، أفصحتْ عن شرطٍ مقدَّرٍ، والمعنى: فإن ترضوا عنهم؛ فإنَّ اللّهَ لا يرضى عن القومِ الفاسقين، وإنَّما حذفَ الشَّرطَ إلماعًا إلى أنَّه لا ينبغي لمؤمنٍ أن يكونَ منه أيُّ رضًا عن منافقٍ، وأن يغيِّبَهُ من واقعِهِ كما غابَ عن النَّصِّ.

دلالةُ تعدُّدِ المؤكِّداتِ في الآية المصدّرة بـ ﴿إِنَّ﴾:

الرّضا عمّن لم يرض الله عنه، لا يفعله المؤمن

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وفيه تعدَّدَتِ المؤكِّداتُ بـ ﴿إِنَّ﴾، والاسميَّةِ، وتوسُّطِ النَّفي بين المسندِ إليه والمسندِ، والمقصودُ من ذلك إخبارُ اللّهِ سبحانه بعدمِ رضاهُ عن القومِ الفاسقينَ، وأكَّدَ هذا الحكمَ بهذه المؤكِّداتِ، والغرضُ هو نهيُ المؤمنينَ عن ذلك؛ لأنَّ الرِّضا عمَّن لا يرضى اللّهُ عنه ممَّا لا يفعلُهُ مؤمنٌ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

إدخالُ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ، يدفعُهم لسرعةِ الامتثالِ

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وفيه عبَّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لإدخالِ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ حتَّى لا يميلوا مع ضغوطِ المنافقينَ عليهم، ويحذروا مخالفةَ أمرِ اللهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾:

الرِّضا ضدُّهُ السُّخط، وقد أتى بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ للدَّلالةِ على سخطِ اللهِ الدّائمِ المستمرِّ على الفاسقين، وكذلك لئلّا يَتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ رضا المؤمنين من دواعي رضا اللهِ تعالى[1].

رسوخُ الضَّلالِ في نفوسِ الفاسقينَ، هو مسلك النِّفاق المهين

سرُّ اختيارِ ﴿لَا﴾ في: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿لَا﴾ في قولِهِ: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ دونَ (لن) الَّتي تفيدُ النَّفي، فهيَ وإن اشتركت مع (لا) في النَّفي، إلّا أن (لن) تفيدُ النَّفي مع التَّأبيدِ، واللهُ يريدُ أن يفتحَ بابَ التَّوبةِ للمنافقين، فكانَ التَّعبيرُ بـ ﴿لَا﴾ هو المناسبَ لهذا الفضلِ.

باب التّوبة مفتوح على مصراعيه، لكلّ تائب

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفاسقينَ:

آثرَ التَّعبيرَ بالفاسقينَ دونَ المنافقينَ، أوالكافرينَ، أو الظّالمين...؛ للإشعارِ بتجاوزِهم وخروجِهم عمّا رَضِيَه اللهُ لهم مِنَ الإيمانِ والطّاعةِ؛ لأنَّ الفسقَ هو الخروجُ عن الطّاعةِ، من قولِهم: فسقتِ النَّواةُ عن الرُّطبةِ؛ إذا خرجَتْ، فالخروجُ أعمُّ يندرجُ تحتَهُ كلُّ هذهِ الأوصافِ.

اختيار اللّفظ المناسب للدّلالة، من بيان السّياق

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ الضَّميرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وضْعُ المُظهَرِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم (عَنْهُم)؛ حيثُ عَدَل عن الإتيانِ بالضَّميرِ (هم) إلى التَّعبيرِ بصِفتِهم؛ للتَّسجيل عليهم بالخُروجِ عن الطّاعةِ، المُستوجِبِ لِما حلَّ بهم مِن السُّخطِ، وللإيذانِ بشُمولِ الحُكمِ لِمَن شارَكهم في ذلكَ الفسقِ؛ ففيهِ دَلالةٌ على ذَمِّهم، وتَعليلِ عَدمِ الرِّضا عنهم.

عدلُ اللهِ تعالى في ثوابِهِ وعقابِهِ، ميزانٌ للكون، وأمانٌ للموجودات

(1) أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 4/95.

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ بابَ التَّوبةِ مَفتوحٌ، وأنَّهم مهما ارتكبوا من المعاصي هم أو غيرُهم، فإنَّ اللّه يتوبُ عليهم، ويرضا عنهم؛ إذا عادوا إلى ربِّهم، وصدَّقوا برسولهِ، وأمّا ما داموا فاسِقينَ، فإنَّ اللّهَ لا يرضا عليهم، لوجودِ المانِعِ مِن رضاه، وهو خروجُهم عمّا رَضِيَه اللّهُ تعالى[1].

نكتةُ تقديمِ المسندِ إليهِ، على خبرِهِ الفعليّ:

تأكيدُ عدمِ الرِّضا عن الفاسقين، تحفيزٌ لعدمِ الرِّضا عن المنافقينَ

قدَّمَ المسندَ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ على خبرِهِ الفعلي ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ للتَّأكيد على عدمِ رضاه سبحانه عن المنافقين، وإنَّما جاءَ التَّأكيدُ من إسنادِ عدمِ الرِّضا مرَّتين الأولى: إسنادُ الخبر ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ، ثمَّ إسنادُ عدمِ الرِّضا إلى الضَّمير العائدِ على لفظِ الجلالة، فجاء التَّأكيدُ من تكرارِ الإسنادِ.

المتشابهُ اللَّفظيُّ بين آيتي سورة التّوبة:

الذِّكرُ والحذفُ في الآيتين، ملمحٌ للبيان، ومدخلٌ للدّلالة البليغة

تشابَهَ قولهُ تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مع قولهِ تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

النَّاظرُ في الآيتين - مع أنَّهما في ذمِّ المنافقين المتخلِّفين عن رسولِ اللّهِ ﷺ في غزوة تبوك، حيثُ لجؤوا إلى الحَلِفِ بأيمانٍ فاجرةٍ اعتذارًا وخداعًا للمؤمنين - يجدُ اختلافًا بينَ الآيتين في التَّعبيرِ بـ ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾ في الأولى، وفي الثّانية بـ ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ دون السِّين، ويجدُ في الآيةِ الأولى ذكرَ المُقسم بهِ ﴿بِٱللَّهِ﴾ وعدمَ ذكرِهِ في الثّانية.

بلاغةُ ذكرِ السِّينِ في ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾ الآية.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/94، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3420.

ذُكِرَتِ السِّينُ في قولِه: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾؛ لأنَّها حرفٌ يفيدُ تخليصَ المضارعِ للاستقبالِ[1]، وهو المناسبُ لما كانَ يضمرهُ المنافقونَ من كذبٍ في اعتذارِهم؛ إذ هو أمرٌ خفيٌّ، يمكِّنُهم من التَّلبيس على المؤمنين، وذلك إذا اقترنَ الاعتذارُ بيمينٍ مؤكِّدَةٍ؛ لذا أوحى اللّهُ إلى نبيِّهِ ﷺ قبلَ قفولِهِ من غزوةِ تبوكَ بما سيكونُ من أمرِ المنافقين؛ إبطالًا لمكرِهم وتكذيبًا لاعتذارِهم، وفيهِ إشارةٌ إلى وجهٍ إعجازيٍّ في القرآنِ، حيثُ أخبرَ بما لم يقع بعد؛ حيثُ نزلتِ الآياتُ قبلَ رجوعِ النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وهو من جملة المعجزاتِ[2]، أمّا قولُه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ مجرَّدًا من السِّين، فإنَّها في بيانِ حالِ المنافقين وتسجيلِ قبائحِهم، وهي مُتجدِّدَةٌ في نفوسِهم وملازمةٌ لهم في سائرِ الأحوالِ، ولو اقترنتْ بالسِّين؛ لفاتتْ دلالتُها على هذا المعنى.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الآيةَ المقترنة بالسِّين مخصوصةٌ بمجموعة من المنافقين، والَّتي خلت من السِّين في طائفةٍ أخرى[3]، وإن كانَ الرّاجحُ أنَّ الآيتين في طائفةٍ واحدةٍ، فالأولى تحدَّثت عن حلفٍ أنشأهُ المنافقون اعتذارًا عن الخروجِ إلى الغزوةِ؛ لأنَّهُ كما زعموا فوقَ طاقتهم، والثّانيةُ بعد تحقُّقِ التَّخلُّف، فرغبوا أن يُعرضَ المسلمون عنهم؛ فلا يؤاخذوهم[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحَلْفُ)، و(القَسَمُ):

فرَّقَ العسكريُّ بين القسمِ والحلفِ واليمينِ، بأنَّ القسمَ أبلغُ من الحلفِ؛ لأنَّ معنى قولنا: أُقسِمُ باللهِ أنَّهُ صارَ ذا قسَمٍ باللّهِ، والمرادُ

الحَلْفُ يردُ غالبًا فيما يكون كذبًا، بخلاف القَسَم، فإنَّه مبنيٌّ على الصِّدقِ

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 59.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 3/259.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، والنّيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/519.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/184، 185، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 348.

أنَّ الَّذي أقسمَ عليهِ من المالِ وغيره قد أحرزَهُ، ودفعَ عنه الخصمَ باللّهِ. والحَلْفُ من قولِكَ: سيفٌ حليفٌ، أي: قاطعٌ ماضٍ، فإذا قُلتَ: حلفَ باللّهِ، فكأنَّكَ قلتَ: قطعَ المخاصمةَ باللّهِ، فالأوَّلُ أبلغُ؛ لأنَّه يتضمَّنُ معنى الآخر مع دفعِ الخصمِ، ففيهِ معنيان، وقولنا: حلفَ يفيدُ معنى واحدًا وهو قطعُ المخاصمةِ فقط، وذلك أنَّ مَن أحرزَ الشَّيءَ باستحقاقٍ في الظّاهرِ، فلا خُصومةَ بينه وبين أحدٍ فيه، وليس كلٌّ من دفعَ الخصومةَ في الشَّيءِ، فقد أحرزَهُ. والحَلْفُ أكثرُ استخدامًا فيما يكون كذبًا، ويكونُ صاحبهُ عالمًا بذلك، والقسمُ أكثرُ استخدامًا فيما يكونُ صدقًا.

وقدْ آثرَ التَّعبيرَ بالحلفِ دونَ القسمِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالحَلْفُ يدورُ في العربيَّة على احتمال الحِنْثِ غالبًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على الظَّنِّ، وفي البيان القرآنيِّ يتَّضحُ بجلاءٍ أنَّ اليمينَ في الحلفِ معقودةٌ غالبًا على الحنثِ أصلًا، حيث يحلفُ المنافقون على خلافِ الحقيقة التماسًا للعذر، دون مبرَّةٍ في الحلفِ أو صدقٍ في اليمين. يؤكِّدُ ذلك أنَّ لفظَ الحلفِ في القرآن الكريم وردَ غالبًا في حقِّ المنافقينَ، وسورةُ التَّوبةِ شاهدةٌ على ذلك، فقد تكرَّرَ فيها لفظُ الحلف في سياقِ حديثِ القرآنِ عنهم، بخلاف القَسَمِ فإنَّه مبنيٌّ على الصِّدقِ، ولذلك يردُ القسمُ في القرآنِ في جانبِ المولى ﷻ، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38 - 39] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40] إلى غير ذلك من الآيات الَّتي ورد فيها لفظُ القسم. وعلى ذلك فالحلفُ ليس كالقسم؛ لأنَّ القَسَمَ يكونُ على الشَّيء الواضح والحقِّ البيِّنِ، والأيمان الصّادقة؛ ولهذا جاء القَسَم في القرآنِ في الأيمانِ الصّادقة، وجاء موصوفًا بالعظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 76]، بخلافِ الحلفِ؛ فهو في جانبِ المنافقينَ كما سبقَ ذكرُ ذلك.

المأوى والمثوى:

المثوى: (مَفْعَلٌ) من ثوى إذا أقامَ، وهو المستقرُّ والمآلُ الَّذي يَبلُغُهُ المرءُ بعد عَناءٍ ومُكابدةٍ، ويصلُ إليهِ بدون تَخطيطٍ ولا سَعيٍ ولا تَدبيرٍ مُسبقٍ، وقد يكونُ مَثوى سُوْءٍ أو مَثوى راحةٍ وكرامة، فالمفردةُ ليست للدَّلالةِ على الخيرِ المحضِ أو الشَّرِّ المحضِ، بل محايدة تصفُ الحال سواء كان مآلَ خيرٍ أو مآلَ شرٍّ، ويُسمَّى قَبْرُ الرَّجلِ (مثواه)؛ لأنَّه استقرَّ فيهِ بعد عناءِ الحياةِ ولم يكن يسعى له، ويحتملُ أن يكونَ مثواهُ حسنًا أو سيِّئًا.

أمَّا المأوى: فـ(مَفْعَلٌ) من أوى إلى كذا، إذا ذهبَ إليه، وهو المستقَرُّ والمآلُ المكِينُ الَّذي يَبْلُغُهُ مَنْ يَسعى، ويجهدُ في الوصُول إليه، يقول تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: 10]. فإنَّ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ سعوا، وجهدوا، ودبَّروا أمرهم للوصولِ للكهف؛ بحثًا عن الأمنِ والاحتماءِ من عدوِّهم، فكانَ الكهفُ مأوًى لهم.

المـــأوى كـلّ مـكـانٍ يـرجـعُ إليـه الإنـسـان، بخلاف المثوى؛ فهو المكانُ الَّذي يقامُ فيه

وقد آثرَ التَّعبيرَ بالمأوى دونَ المثوى لوجودِ فرقٍ بينهما: فالمأوى يطلقُ على المسكنِ والمقرِّ الَّذي لا براحَ منه، وهو اسمُ مكانٍ من أويتُ إلى المكانِ؛ إذا دخلْتَهُ، وسكنْتَ فيه، ودلالتهُ اللُّغويَّةُ تدلُّ على الضَّمِّ والتَّجمُّعِ.

أمَّا المثوى؛ فهو اسمُ مكانٍ من ثَوى، والثَّواءُ هو طولُ المقامِ، والثَّوي: يقال للبيت المهيَّأ للضيف، ويقالُ للغريبِ؛ إذا أقام ببلدةٍ: ثاوٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 45]، وعلى هذا؛ فالمأوى يختلفُ عن المثوى، وذلك أنَّ المأوى يطلقُ على كلِّ مكانٍ يرجعُ إليه الإنسان أو غيره ليلًا أو نهارًا، بخلاف المثوى؛ فهو المكانُ الَّذي يقامُ فيه، وبذلك يكون المأوى أعمَّ من المثوى؛ لأنَّهُ لا يلزمُ من الإيواءِ الثَّواءُ، بخلاف الثَّواءِ، فيلزمُ منه الإيواءُ، وأيضًا أنَّ المأوى يكونُ في الجنَّة والنَّارِ، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، بخلاف المثوى؛ فهو في الغالب في العقاب والعذاب، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 60]، وقال أيضًا: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الَّتي ذُكر فيها المثوى في مقامِ العقابِ والعذابِ[1].

الانقلابُ والرُّجوعُ:

الـتَّـعـبـيرُ بالانقلابِ يفيدُ العودةَ مختارًا، ولا يشترط ذلك في الرّجوع

عبَّرَ عن الرُّجوعِ بالانقلابِ؛ لأنَّ المجاهدَ سائرٌ في طريقهِ إلى الأمامِ، فإذا أرادَ العودةَ انقلبَ من السَّيرِ إلى الأمامِ إلى العودةِ إلى الوراء، والتَّعبيرُ بالانقلابِ يفيدُ العودةَ مختارًا غيرَ مقهورٍ ولا

(1) الحمداني، الفروق اللُّغوية في القرآن الكريم، ص: 167 - 170.

مهزوم ولا متراجع[1].وممّا يذكرُ أنَّ الانقلابَ: رجوعٌ وانصرافٌ مع زيادةِ معنى الوصول والاستيلاء[2].

الإعراضُ والصَّفْحُ:

مـرادُ المنافقينَ التَّزكُ لا ابتداءُ حياةٍ صحيحةٍ، وصفحةٍ جديدةٍ، مع المسلمينَ

آثرَ التَّعبيرَ بالإعراضِ دونَ الصَّفحِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فقولُك: صفحتُ عن فلانٍ يفيدُ أنَّك أعرضتَ عن صفحةِ ماضيه، وأقبلتَ إليه بصفحةٍ جديدةٍ، فاستعملَ الصَّفحَ على هذا بمعنى البدءِ بصفحةٍ جديدةٍ، قالَ تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: 109]، وقالَ تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ [النّور: 22]، ومعلومٌ من سببِ نزولِ هذه الآيةِ أنَّ القصدَ منها الإعراضُ عن صفحةِ ماضي الصحابيِّ (مِسْطَحِ بنِ أُثاثَةَ) والبدءُ معه بصفحةٍ جديدةٍ. أمّا الإعراضُ؛ فهو بمعنى التَّركِ، قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النّساء: 63]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: 48] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، وأغلبُها في شأنِ المنافقين، والمرادُ: التَّركُ لهم بالكليَّةِ دونَ معاتبةٍ أو مؤاخذةٍ؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لها؛ لذلك آثرَ التَّعبيرَ بالإعراضِ هنا لمناسبتِه لسياقِ الآيةِ في حالةِ هؤلاء المنافقينَ[3].

(الرِّجْسُ) و(الرِّجْزُ):

الـرِّجـسُ؛ كـلُّ شيءٍ يُستقذرُ، والرِّجزُالعذابِ، أ والـوسـوسـة، أوعبادة الأوثانِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرِّجس دونَ الرَّجزِ لوجود فرقٍ بينهما، فمادَّةُ الرِّجزِ تدلُّ على الاضطرابِ، وهو داءٌ يصيبُ الإبلَ في أعجازِها، فإذا ثارت النّاقةُ ارتعشت فخذاها، ومن هذا اشتقاقُ الرَّجَزِ من الشِّعر؛ لأنَّهُ مقطوعٌ مضطربٌ، ويطلقُ الرِّجزُ على العذابِ، وكلُّ عذابٍ أُنزل على قومٍ، فهو رجزٌ، ووسواسُ الشَّيطانِ رجزٌ، وعبادةُ الأوثانِ رجزٌ، قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدّثّر: 5] –على قراءة الجمهور– أي: اهجرْ ما يؤدِّي إلى الرِّجزِ.

أمّا الرِّجسُ؛ فيطلقُ على كلِّ شيءٍ يستقذرُ، كالخنزيرِ، وكلُّ قذرٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والتّحرير والتّنوير: 4/313، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3418.
(2) الآلوسيّ، روح المَعاني: 6/5.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 236.

رجسٌ، ويطلقُ الرِّجس على النَّتْنِ، قال تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: 145] وذلك من حيثُ الشَّرعُ، وعلى هذا فالرِّجسُ يختلف عن الرِّجزِ، وإن وجدَ بينهما اشتراكٌ في المعنى إلّا أنَّ القرآنَ آثرَ التَّعبيرَ عنهم بالرِّجس لكي يُنَفِّرَ المؤمنين من مجالستِهم ومؤاكلتِهم والتَّعامل معهم؛ لأنَّ رائحتَهم منتنةٌ، وفي هذا توبيخٌ وتقريعٌ للمنافقينَ[1].

(الجزاءُ) و(الأجرُ):

الجزاءُ مقابلةُ الخير بالثَّواب، والشَّرِّ والأجرُ ما يعود من ثواب العمل

آثرَ التَّعبيرَ بالجزاءِ دونَ غيرِهِ لوجود فرقٍ بينهما: فالجزاءُ هو المقابلةُ على الخير بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأصلهُ الغَنَايةُ والكفايةُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 48]، والجزاءُ يكونُ مماثلًا مساويًا للمُجزى عنه؛ لأنَّ أصلَ الجزاءِ في كلامِ العربِ القضاءُ والتَّعويضُ، يقالُ: جَزَيْتُهُ قَرْضَهُ ودَيْنَهُ أَجْزِيهِ جَزاءً؛ بمعنى: قضيتُ دينَهُ، ولا يتأتَّى في هذا المقامِ إلّا الجزاءُ، فلا يردُ الأجر أو الثَّواب في هذا المقامِ؛ لأنَّ الأجرَ لا يقال إلّا في النَّفعِ غالبًا، والثَّواب في الجزاءِ بالخير على العملِ الصّالح، والمقامُ هنا هو مقامُ عقابِ المنافقين[2].

الرِّضا والمحبةُ:

الرِّضا اطمئنانُ القلبِ إلى أمرٍ فيه نفعٌ، والمحبَّةُ؛ إرادةُ ما تراهُ خيرًا

آثرَ التَّعبيرَ بالرِّضا دونَ المحبَّةِ؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالرِّضا هو اطمئنانُ القلبِ إلى أمرٍ فيه نفعٌ، وهو خلافُ السُّخطِ، وأمّا المحبَّةُ؛ فهي إرادةُ ما تراهُ أو تظنُّه خيرًا، وضدُّها البُغضُ.

وعلى هذا فالمناسبُ التَّعبيرُ بالرِّضا؛ لأنَّ المنافقينَ يرونَ لأنفسِهم وجودًا في المجتمعِ، ويريدونَ من المسلمينَ أن يطمئنوهُم على مصالحهِم ومنافعِهم، والرِّضا أمرٌ يجمعُ بين الظّاهر والباطنِ، بخلافِ الحبِّ فهو أمرٌ باطنيٌّ قد لا تظهرُ آثارهُ عليهم في المجتمعِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 548.
(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 148.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»